المحاضرة الثالثة: المستوى التركيبي.

1- الانتقال من المستوى الصرفي إلى المستوى التركيبي:

إن الوحدات التي نتحصل عليها باستخدام قواعد الصرف لا يمكن أن نشكّل منها خطابات بوضع بعضها بجوار بعض كيفما اتفق، دون ترتيب معين. فالآلاف من الكلمات المفردة لا تسمح لصاحبها بممارسة اللغة إذا لم يرتبط بعضها ببعض وفقا لقواعد معينة. و«لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك» [1].

إنّ الوحدات اللغوية تنتظم في المكان أثناء الكتابة، وفي الزمان أثناء القراءة، في سلسلة خطية تدعى مدرج الكلام. والرمز اللغوي في هذا المستوى لا يتميز بتكوّنه من دال ومدلول فقط، إذ إنّ ارتباطه برموز أخرى بواسطة علاقات خاصة، يترتب عنه اكتسابه وظيفة إزاء تلك الرموز. وهذا التنظيم هو الوحيد الذي يسمح بمقابلة رسالة لغوية معينة برسالة أخرى[2].

2- مجال الدراسة النحوية:

يهتمّ علم النحو بدراسة العناصر التي تتركّب منها الجملة، وكيفيات انتظامها فيها. فهو يدرس العلاقات النّاجمة عن ارتباط وتأثير وحدات الجملة بعضها على بعض في تركيب معيّن، كما يدرس العلاقات الناجمة عن التغيير في التركيب، بإدخال أدوات معينة عليه، أو بتقديم وتأخير عناصره بعضها على بعض.

---

[1] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية – الجزائر، 1991، ص69.

[2] – Emile Genouvrier et Jean Peytard, Linguistique et enseignement du Français, Librairie Larousse – Paris, 1971, P101.

ولقد ميز قلونزر "Glanzer" بين القواعد والتراكيب والتحويلات التي تشكل علم التراكيب "La syntaxe" من جهة، وبين الأبواب أو الأصناف النحوية المنفردة التي ينظّمها علم التراكيب من جهة أخرى [3].

3- ترتيب الوحدات داخل الجملة:

لقد لخّص عبد القاهر الجرجاني العلاقات التي تربط بين الكلمات في الجملة العربيّة بقوله: « وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيدا له أو بدلا منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزا»[4].

ويمكن أن نستخلص من القول السابق مايلي:

- الأصناف أو الأبواب النحوية المنفردة التي تصنف ضمنها وحدات اللغة، وهي: الفعل، الفاعل، المفعول، المبتدأ، الخبر، الصفة، الحال ...
- العلاقات المعنوية التي تنتظم وفقها وحدات الأبواب النحوية المنفردة في التركيب، وتتمثل في: الإسناد والتخصيص والتبعية والنسبة.

3- اختيار الوظائف النحوية للكلمات المقروءة:

إن اختيار الوظائف النحوية للكلمات، يعني ترتيب بنى الجمل فيه. فهو يمثل إذن شكلا من أشكال الفهم. ومما يسهل هذه العملية امتلاك الوحدات التي تنتمي إلى صنف نحوي واحد

---

[3] – B.Lamesch, La compréhension du langage par l'enfant, P48.

[4] –عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص69.

مميزات مشتركة، وتواجدها في سياقات متماثلة وفقا لقواعد يمكن تحديدها. وهذه الخصائص هي التي أدت إلى تعليم القواعد باستخدام السياق، « وما سمي بالتمارين البنوية Les exercices structuraux» ما هو إلا استعمال واستغلال العلاقات التعويضية، وتشابه البنى في سياقات لا تتغير، أو تحدد هذه البنى إن تغيرت [5].

ومن جهة أخرى، فإن اختيار البنية الصرفية والوظيفة النحوية عمليتان متداخلتان في ذهن القارئ غالبا، وذلك لأن العلاقة بين البنية الصرفية والوظيفة النحوية إحداهما بالنسبة إلى الأخرى هي علاقة تضمن [6]. فلكل كلمة بنية صرفية تصنف ضمن قالب وفيما عدا المسند إليه والمسند، فإن أصنافا من الوحدات ترتبط بأخرى، ففي المثالين: « زيد قرأ دروسا كثيرة » و « زيد قرأ دروسا كثيرة المعلومات » ، يتضح أن الصفة (كثيرة) مرتبطة بالمفعول (دروسا) وتابعة له، وفضلا عن ذلك، ارتبطت في المثال الثاني بكلمة (المعلومات) عن طريق الإضافة. فهي تابعة ومضافة في آن واحد.

ولتلخيص ماسبق، نقول إنه تنشأ بين وحدات الجملة ارتباطات، أقواها هي تلك التي تنشأ بين المسند إليه والمسند. ويرتبط كل منهما بأصناف أخرى من الوحدات بواسطة علاقات أخرى أقل قوة ليشكل كل منهما ركنا خاصا به.

ولقد استعملت اللسانيات الوصفية للتعبير عن الارتباطات الحاصلة بين الوحدات داخل الجملة مفهوم المركب (Syntagme)، واستعملت البنوية الأمريكية مفهوم المكونات المباشرة "Constituants immédiants". وأدخل مارتيني (Martinet) مفهوم الامتداد "L'expansion"، و « يسمى امتدادا كل جزء من النص يمكن حذفه دون أن تتغير العلاقات بين باقي عناصر الجملة » [7]

---

[5] – مصطفى حركات، اللسانيات العامة وقضايا العربية، ص: 95.

[6] – B.Lamesch, La compréhension du langage par l'enfant, P48

[7] – مصطفى حركات، اللسانيات العامة وقضايا العربية، ص72.

4- البنية النّحوية والفهم:

إن القواعد النحوية التي تنتظم وفقها عناصر الجملة تشكل نمطا من أنماط الفهم. ففي المثال الذي ساقه تشومسكي (Chomsky) عام 1957: « Colorless green ideas sleep furiously» ، والذي يعني: (الأفكار الخضراء التي لا لون لها تنام بغضب)، نموذج للجملة السليمة نحويا. وإذا كانت لا تعني شيئا، فذلك راجع إلى كونها غير منسجمة دلاليا، نتيجة لعدم ترابط معاني الكلمات فيها. وعلى الرغم من ذلك، فإن ترتيب الوحدات في الجملة السابقة يجعلنا نعتقد أول وهلة أنها تحمل معنى، بحيث تدل على أن « شيء ما قام بحدث بكيفية معينة » [8]. بيد أن القارئ لن يفكر أن سلسلة الكلمات « Sleep ideas green furiously Colorless »، يمكن أن تحتمل أدنى معنى.

ولقد أثبتت تجارب عديدة أن الجملة السليمة التركيب تتذكر أكثر من سلسلة من الكلمات غير المترابطة، ومن ضمن هذه التجارب تلك التي أجراها ماركس وميلر (L.E.Marks et G.A Miller) عام 1964 [9]، حيث قاما بإنشاء أربعة أنواع من القوائم، تتشكل كل منها من سلسلة من الكلمات، بحيث تضم القائمة الأولى جملا عادية، وتضم الثانية جملا سليمة نحويا وغير منسجمة دلاليا، وتضم الثالثة سلسلة من الكلمات غير سليمة نحويا ولكنها منسجمة دلاليا؛ أما القائمة الرابعة، فتضم سلسلة من الكلمات غير مترابطة نحويا ودلاليا. والنتيجة التي توصل إليها الباحثان، هي أن القارئ يتذكر بصورة أفضل الجمل غير المنسجمة دلاليا والمرتبة وفق قواعد النحو من الوحدات المرتبة ترتيبا عشوائيا.

ونخلص مما سبق، إلى أن البنية النحوية تسهم في فهم المقروء، بالرغم من أن الفهم الناجم عنها غير كامل.

---

[8] – B.Lamesch, La compréhension du langage par l'enfant, p48 – 49.

[9] – المرجع نفسه، ص49.

ويرى كاري ومهلر وبيفر (carrey, Mehler et Bever) في حديثهم عن كيفية تجنب اللبس، وإعطاء الكلمات معنى محددا في سياقها، أن التحليل النحوي يسبق التفسير الدلالي، وأن هذا الأخير يتحرر شيئا فشيئا وفقا لتعرف القارئ عناصر الجملة. إذ إن القارئ تقابله أثناء تعرفه الكلمات تفسيرات عديدة، إلا أن التي لا تتوافق منها مع الفرضيات المطروحة من خلال تعرفه تركيب الجملة، تستبعد. وإن بدت الفرضية التي احتفظ بها القارئ خاطئة، وجب عليه أن يعيد قراءة الجملة بأكملها [10].

5- موقع الجملة من التحليل اللساني:

يرى بعض علماء اللسان أن الجملة هي الوحدة العليا للتحليل اللساني، ومنها يجب الانطلاق في تعلم القراءة. وأما المبدأ الذي ينطلقون منه، فهو نفسي وبيداغوجي، ويتمثل في أن الطفل يجب أن يفهم ما يقرأ. فحسب هؤلاء « الكلام يعني إنتاج جمل نحوية تحمل معنى ». و « القراءة تعني تعرف جمل نحوية تحمل معنى، فيما عدا بعض الحالات الخاصة، كقراءة: (معاجم، جداول...)، حيث نتعرف على كلمات معزولة » [11].

وعلى العكس من ذلك، فإن أبحاثا حديثة تعتبر الجملة الوحدة الدنيا للتحليل اللساني، وأما الوحدة العليا فهي الخطاب [12] أو النص. فالجملة قد يكون معناها غامضا أو ملتبسا أو عامّا، ولا تقوى على حمل فكرة كاملة إلا إذا ارتبطت بغيرها من الجمل في سياق معين لتشكّل وحدة كاملة هي النّص. ويمكن التّحقّق من ذلك بانتزاع جمل من الحوار، وتجريدها من سياقها الذي وردت فيه.

[10] –Joël pynte lire, identifier, comprendre, p114.

[11] – Manuel de linguistique appliqueé, p83.

[12] – المرجع نفسه، ص84.